القدس فى اعتقاد المسلمين

القدس فى الاعتقاد الإسلامى ، لها مكانة دينية مرموقة ، اتفق على ذلك المسلمون بجميع طوائفهم ومذاهبهم وتوجهاتهم ، فهو إجماع الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها . ولا غرو أن يلتزم جميع المسلمين بوجوب الدفاع عن القدس ، والغيرة عليها ، والذود عن حماها ، وحرماتها ومقدساتها ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل حمايتها ، ورد المعتدين عليها . وقد اختلف المسلمون ، والعرب ، والفلسطينيون فى الموقف من قضية السلام مع إسرائيل : هل يجوز أو لا يجوز؟ وإن جاز : هل ينجح أو لا ينجح؟ ولكنهم جميعا ـ مسلمين وعربًا وفلسطينيين ـ لم يختلفوا حول عروبة القدس ، وإسلاميتها ، وضرورة بقائها عربية إسلامية ، وفرضية مقاومة المحاولات الإسرائيلية المستميتة لتهويدها ، وتغيير معالمها ، ومسخ شخصيتها التاريخية ، ومحو مظاهر العروبة والإسلام والمسيحية منها . فللقدس قدسية إسلامية مقدورة ، وهى تمثل فى حس المسلمين ووعيهم الإسلامى : القبلة الأولى ، وأرض الإسراء والمعراج ، وثالث المدن المعظمة ، وأرض النبوات والبركات ، وأرض الرباط والجهاد كما سنبين ذلك فيما يلى .

القدس : القبلة الأولى :

أول ما تمثله القدس فى حس المسلمين وفى وعيهم وفكرهم الدينى : أنها (القبلة الأولى) التى ظل رسول الله ﷺ وأصحابه يتوجهون إليها فى صلاتهم منذ فرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج فى السنة العاشرة للبعثة المحمدية ، أى قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وظلوا يصلون إليها فى مكة ، وبعد هجرتهم إلى المدينة ، ستة عشر شهرًا ، حتى نزل القرآن يأمرهم بالتوجه إلى الكعبة ، أو المسجد الحرام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة:١٥٠). وفى المدينة المنورة معلم أثرى بارز يؤكد هذه القضية ، وهو مسجد القبلتين ، الذى صلى فيه المسلمون صلاة واحدة بعضها إلى القدس ، وبعضها إلى مكة. وهو لا يزال قائمًا ، وقد جدد وتعهد ، وهو يزار إلى اليوم ويصلى فيه .

وقد أثار اليهود فى المدينة ضجة كبرى حول هذا التحول ، ورد عليهم القرآن بأن الجهات كلها لله ، وهو الذى يحدد أيها يكون القبلة لمن يصلى له : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة:١٤٢) إلى أن يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ

مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:١٤٣). فقد قالوا : إن صلاة المسلمين تلك السنوات قد ضاعت وأهدرت ، لأنها لم تكن إلى قبلة صحيحة ، فقال الله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ أى صلاتكم ، لأنها كانت صلاة إلى قبلة صحيحة مرضية عنده عز وجل .

القدس أرض الإسراء والمعراج :

وثانى ما تمثله القدس فى الوعى الإسلامى : أن الله تعالى جعلها منتهى رحلة الإسراء الأرضية ، ومبتدأ رحلة المعراج السماوية ، فقد شاءت إرادة الله أن تبدأ هذه الرحلة الأرضية المحمدية الليلية المباركة من مكة ومن المسجد الحرام ، حيث يقيم الرسول ﷺ ، وأن تنتهى عند المسجد الأقصى ، ولم يكن هذا اعتباطا ولا جزافًا ، بل كان ذلك بتدبير إلهى ولحكمة ربانية ، وهى أن يلتقى خاتم الرسل والنبيين هناك بالرسل الكرام ، ويصلى بهم إمامًا ، وفى هذا إعلان عن انتقال القيادة الدينية للعالم من بنى إسرائيل إلى أمة جديدة ، ورسول جديد ، وكتاب جديد : أمة عالمية ، ورسول عالمى ، وكتاب عالمى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)

لقد نص القرآن على مبتدأ هذه الرحلة ومنتهاها بجلاء فى أول آية فى السورة التى حملت اسم هذه الرحلة (سورة الإسراء) فقال تعالى:﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ (الإسراء:١). والآية لم تصف المسجد الحرام بأى صفة مع ماله من بركات وأمجاد، ولكنها وصفت المسجد الأقصى بهذا الوصف ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، وإذا كان ما حوله مباركًا، فمن باب أولى أن يكون هو مباركًا.

وقصة الإسراء والمعراج حافلة بالرموز والدلالات التى توحى بأهمية هذا المكان المبارك، الذى ربط فيه جبريل البراق، الدابة العجيبة التى كانت وسيلة الانتقال من مكة إلى القدس، وقد ربطها بالصخرة حتى يعود من الرحلة الأخرى، التى بدأت من القدس أو المسجد الأقصى إلى السموات العلا، إلى «سدرة المنتهى»، وقد أورث ذلك المسلمين من ذكريات الرحلة: الصخرة، وحائط البراق.

لو لم تكن القدس مقصودة فى هذه الرحلة، لأمكن العروج من مكة إلى السماء مباشرة، ولكن المرور بهذه المحطة القدسية أمر مقصود، كما دل على ذلك القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

ومن ثمرات رحلة الإسراء : الربط بين مبتدأ الإسراء ومنتهاه ، وبعبارة أخرى بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وهذا الربط له إيحاؤه وتأثيره فى وعى الإنسان المسلم وضميره ووجدانه ، بحيث لا تنفصل قدسية أحد المسجدين عن قدسية الآخر ، ومن فرط فى أحدهما أوشك أن يفرط فى الآخر .

القدس ثالث المدن المعظمة :

والقدس ثالث المدن المعظمة فى الإسلام ؛ فالمدينة الأولى فى الإسلام هى مكة المكرمة ، التى شرفها الله بالمسجد الحرام . والمدينة الثانية فى الإسلام هى طيبة ، أو المدينة المنورة ، التى شرفها الله بالمسجد النبوى ، والتى ضمت قبر الرسول ﷺ . والمدينة الثالثة فى الإسلام هى القدس أو بيت المقدس ، والتى شرفها الله بالمسجد الأقصى ، الذى بارك الله حوله ، وفى هذا صح الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » .

فالمساجد كلها متساوية فى مثوبة من صلى فيها ، ولا يجوز للمسلم أن يشد رحاله ، بمعنى أن يعزم على السفر والارتحال للصلاة فى أى مسجد كان ، إلا للصلاة فى هذه الثلاثة المتميزة . وقد جاء الحديث بصيغة الحصر ، فلا يقاس عليها غيرها .

وقد أعلن القرآن عن أهمية المسجد الأقصى وبركته ، قبل بناء المسجد النبوى ، وقبل الهجرة بسنوات ، وقد جاءت الأحاديث النبوية تؤكد ما قرره القرآن ، منها الحديث المذكور ، والحديث الآخر : « الصلاة فى المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فى غيره من المساجد ، ما عدا المسجد الحرام ، والمسجد النبوى » [متفق عليه] ومنها ، ما رواه أبو ذر ، أن النبى ﷺ سئل : أى المساجد بنى فى الأرض أول؟ قال : « المسجد الحرام » ، قيل ثم أى؟ قال : « المسجد الأقصى »[1].

والإسلام حين جعل المسجد الأقصى ثالث المسجدين العظيمين فى الإسلام ، وبالتالى أضاف القدس إلى المدينتين الإسلاميتين المعظمتين : مكة والمدينة ، إنما أراد بذلك أن يقرر مبدأ هاما من مبادئه ، وهو أنه جاء ليبنى لا ليهدم ، وليتمم لا ليحطم ، فالقدس كانت أرض النبوات ، والمسلمون أولى الناس بأنبياء الله ورسله كما قال الرسول ﷺ ليهود المدينة : « نحن أولى بموسى منكم » .

القدس أرض النبوات والبركات :

والقدس جزء من أرض فلسطين ، بل هى غرة جبينها ، وواسطة عقدها ، ولقد وصف الله هذه الأرض بالبركة فى خمسة مواضع فى كتابه :

---

(١) حديث متفق عليه .

أولـــها : فى آية الإسراء حين وصف المسجد الأقصى بأنه : ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ (الإسراء: ١).

وثانيها : حين تحدث فى قصة خليله إبراهيم ، فقال : ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧١).

وثالثها : فى قصة موسى، حيث قال عن بنى إسرائيل بعد إغراق فرعون وجنوده : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

ورابعها : فى قصة سليمان وما سخر الله له من ملك لا ينبغى لأحد من بعده ، ومنه تسخير الريح ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ (الأنبياء: ٨١).

وخامسها : فى قصة سبأ ، وكيف منَّ الله عليهم بالأمن والرغد ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ: ١٨). فهذه القرى التى بارك الله فيها هى قرى الشام وفلسطين.

قال المفسر الآلوسى : المراد بالقرى التى بورك فيها : قرى الشام ، لكثرة أشجارها وثمارها ، والتوسعة على أهلها . وعن

ابن عباس : هى قرى بيت المقدس ، وقال ابن عطية : إن إجماع المفسرين عليه [1].

وقد ذهب عدد من مفسرى القرآن من علماء السلف والخلف فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ (التين:١-٣) إلى أن التين والزيتون يقصد بهما الأرض أو البلدة التى تنبت التين والزيتون ، وهى بيت المقدس .

قال ابن كثير : قال بعض الأئمة : هذه محالّ ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبيًّا مرسلاً من أولى العزم ، أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محل التين والزيتون ، وهو بيت المقدس ، الذى بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام ، والثانى : طور سيناء ، الذى كلم الله عليه موسى بن عمران ، والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنًا . وبهذا التفسير أو التأويل ، تتناغم وتنسجم هذه الأقسام ، فإذا كان البلد الأمين يشير إلى منبت الإسلام رسالة محمد ، وطور سينين يشير إلى منبت اليهودية رسالة موسى ، فإن التين والزيتون يشيران إلى رسالة عيسى ، الذى نشأ فى جوار بيت المقدس ، وقدم موعظته الشهيرة فى جبل الزيتون [2].

---

(١) روح المعانى للآلوسى : ٢٢ / ١٢٩ .

(٢) تفسير القاسمى : ١٧ / ٩١٩٦ وقد ذكر أن الكلام الذى نقله ابن كثير هو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

أرض الرباط والجهاد :

والقدس عند المسلمين هى أرض الرباط والجهاد . فقد كان حديث القرآن عن المسجد الأقصى ، وحديث الرسول عن فضل الصلاة فيه ، من المبشرات بأن القدس سيفتحها الإسلام ، وستكون للمسلمين ، وسيشدون الرحال إلى مسجدها ، مصلين لله متعبدين ، وقد فتحت القدس ـ التى كانت تسمى إيلياء ـ فى عهد الخليفة الثانى فى الإسلام عمر بن الخطاب ، واشترط بطريركها الأكبر صفرونيوس ألا يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة نفسه ، لا لأحد من قواده ، وقد جاء عمر من المدينة إلى القدس فى رحلة تاريخية مثيرة ، وتسلم مفاتيح المدينة ، وعقد مع أهلها من النصارى معاهدة أو اتفاقية معروفة فى التاريخ باسم « العهد العمرى » أو « العهدة العمرية » أمنهم فيها على معابدهم وعقائدهم وشعائرهم وأنفسهم وأموالهم ، وشهد على هذه الوثيقة عدد من قادة المسلمين ، أمثال : خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان [1].

وقد أعلم الله نبيه محمدًا ﷺ بأن هذه الأرض المقدسة سيحتلها الأعداء ، أو يهددونها بالغزو والاحتلال ، ولهذا حرض أمته على الرباط فيها ، والجهاد للدفاع عنها حتى لا تسقط فى أيدى الأعداء ،

---

(١) تاريخ الطبرى ، طبعة دار المعارف بمصر ، الجزء الثالث ، ص ٦٠٩ .

ولتحريرها إذا قدر لها أن تسقط فى أيديهم . كما أخبر عليه الصلاة والسلام بالمعركة المرتقبة بين المسلمين واليهود ، وأن النصر فى النهاية سيكون للمسلمين عليهم ، وأن كل شىء سيكون فى صف المسلمين حتى الحجر والشجر ، وأن كلاً منهما سينطق دالاً على أعدائهم ، سواء كان نطقًا بلسان الحال أم بلسان المقال[1]. وقد روى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من جابههم ، إلا ما أصابهم من لأواء (أى أذى) حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » ، قالوا : وأين هم يا رسول الله ؟ قال : « ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس »[2] .

* * *

(١) يشير إلى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر وأبو هريرة .

(٢) رواه عبد الله بن أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٩) . وقال : وجدت بخط أبى .. وقال الهيثمى : رواه عبد الله بن أحمد (وجادة عن أبيه) والطبرانى ، ورجاله ثقات (٧ : ٢٨٨) .